بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك وأنعم علىٰ نبيه محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ وغفر له وللشارح والسامعين :

[وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ ثَلَاثَةٌ : مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ))[1] رواه البخاري

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ : قوله (سنة الجاهلية) يندرج فيها كل جاهلية مطلقة أو مقيدة، أي في شخص دون شخص ، كتابية أو وثنية أو غيرهما ، من كل مخالفة لما جاء به المرسلون] .

****

الشرح :

قال المصنف رحمه الله وغفر له : و في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ ثَلَاثَةٌ**)) ؛ أولاً : هنا فيه إثبات هذه الصفة لله ﷻ أنه يبغض كما أنه ﷻ يحِب ، قال في القران ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة:٥٤] أي أهل الإيمان وأهل الاستقامة أهل الصلاح ؛ فهو يحبهم وهم كذلك يحبونه ، و﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢] ، و﴿ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ [الصف:٤] ، جاء ذكر محبته ﷻ لعباده ، وجاء أيضاً إثبات البغض في القران

(١) البخاري (٦٨٨٢) .

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٣] والمقت : شدة البغض ، فالله ﷻ يحب ويبغض .

والعاقل عندما يعرف هاتين الصفتين يجتهد غاية الاجتهاد في معرفة ما يحبه الله ﷻ ليفعله ، ومعرفة ما يبغضه الله ﷻ ليجتنبه ويتركه ، وهذا كما نبَّه أهل العلم فيه الثمرة العظيمة التي ينالها من آمن بصفات الله – تبارك وتعالىٰ – وأسمائه ، أما من يعطلون أسماء الله وصفاته أو يتأولونها علىٰ غير مرادها ويَحْرِفُونَها عن معناها ومدلولها فإن هؤلاء يقطعون علىٰ أنفسهم وعلىٰ غيرهم الآثار المباركة، والعوائد الحميدة التي تنال بالإيمان بأسماء الله ﷻ وصفاته .

كم للإيمان بهذه الصفة وغيرها من الصفات من الأثر العظيم علىٰ العبد!! المسلم عندما يقرأ هذا الحديث ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ**)) يحذر من هذه الصفات غاية الحذر، لأنها صفات قبيحة ذميمة يبغضها رب العالمين ﷻ، وهذا الحذر وهذا الخوف الذي ينشأ عند من يثبت لله ﷻ صفاته لا يتحقق لمعطلة الصفات ممن يَحْرِفُونها عن وجهها ويصرفونها عن معناها ومدلولها . والواجب علىٰ المسلم أن يكون في هدا الباب علىٰ جادة أهل السنة ؛ إمرار صفات الله ﷻ كما جاءت والإيمان بها كما وردت دون تحريف أو تعطيل ودون تكييف أو تمثيل .

قال : ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ ثَلَاثَةٌ**)) ؛ ذِكر الرقم هو من حُسن التعليم وحسن البيان ، فإذا عرفت أن أبغض الناس إلىٰ الله ﷻ ثلاثة فإن ذِكر الرقم يعينك علىٰ ضبط المسألة وإتقانها . لم يقل " أبغض الناس إلىٰ الله من فعل كذا ومن فعل كذا ومن فعل كذا"؛ وإنما ذكر الرقم من أجل أن تُضبَط ، وتكون مضبوطة عند المسلم.

قال : ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ ثَلَاثَةٌ : مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) ؛ هذه ثلاثة خصال أو ثلاثة صفات أو ثلاثة أعمال أهلها هم أبغض الناس إلىٰ الله ﷻ ؛ ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) ، وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ كلها تُعَدُّ من الإفساد في الأرض بعد

إصلاحها ، والله ﷻ يقول : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف:٥٦] كل هذا من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها ببعثة النبيين -عليهم صلوات الله وسلامه - ؛ فالأنبياء يبعثهم الله ﷻ لإصلاح الأرض ، وهداية الخلق ، ودعوة الناس إلىٰ الخير والفضيلة ، وتحذيرهم من الشر والرذيلة ؛ فمن الإفساد بل من أعظم الإفساد في الأرض فعل هذه الأمور، وخُصّت هذه الأمور الثلاثة بالذكر لأنها أشد أنواع الإفساد وأخطره .

والإفساد في الأرض علىٰ نوعين :

١ - إفسادٌ في الأرض يتعلق بدنيا الناس وحياتهم .

٢ - إفساد في الأرض يتعلق بدين الناس وعبادتهم .

وأخطر شيء من أنواع الإفساد في الأرض مما هو متعلق بدنيا الناس وحياتهم : قتل النفوس المعصومة وإراقة الدماء المحرمة وإزهاق الأرواح ، ولهذا ذُكر هذا الأمر مضموماً إلىٰ الشرك الذي هو أعظم الذنوب ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الفرقان:٦٨] ، وهذا النوع من الإفساد الذي يتعلق بدنيا الناس وحياتهم ذكَره النبي عليه الصلاة والسلام هنا بقوله ((**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) ؛ مُطَّلب : يعني يبتغي ويريد ويسعىٰ في إراقة دم مسلم بغير حق . والحق لا يحدده هوىٰ الإنسان ومبتغاه ؛ وإنما يحدده شرع الله ﷻ ، ولهذا قال النبي ﷺ : ((لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ : الثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ))(٢) فإراقة الدم بغير حق من أعظم الجرم وأكبر الذنب .

قال ((**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) ؛ ليهريق دمه : أي يريق دمه ، ويقتله بغياً وظلماً وعدوانا ، وقد جاء في الحديث ((يَأْتِي الْمَقْتُولُ مُتَعَلِّقًا رَأْسَهُ بِإِحْدَىٰ يَدَيْهِ، مُتَلَبِّبًا قَاتِلَهُ بِيَدِهِ الأُخْرَىٰ

(٢) البخاري (٦٨٧٨) ، مسلم (١٦٧٦) ، أبو داود (٤٣٥٢) ، الترمذي (١٤٠٢) ، النسائي (٤٧٢٥) .

يَشْخُبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، حَتَّىٰ يَأْتِيَ بِهِ الْعَرْشَ ، فَيَقُولُ الْمَقْتُولُ لِلَّهِ: رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي))[٣] ، فهذا نوع من الفساد خطير جداً وهو يتعلق بدنيا الناس وحياتهم .

والنوع الثاني من الفساد : فساد يتعلق بدين الناس وعبادتهم ، وهذا القسم علىٰ نوعين :

١- نوع يتعلق بمحل العبادة ومكانها .

٢- ونوع يتعلق بالعبادة نفسها والعمل نفسه .

وقد ذكر – عليه الصلاة والسلام – هذين النوعين من الفساد فقال : ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ ،وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) ؛ قوله ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) هذا فساد يتعلق بمحل العبادة ومكانها.

((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**))؛ والحرم: الذي فيه بيت الله – وهو قبلة المسلمين، ومهوىٰ أفئدة المؤمنين، وفيه يطوف الطائفون متقربين لرب العالمين – له حرمة

﴿ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] فهذا فساد يتعلق بموضع العبادة ومحلها ؛ بل يتعلق بأشرف مواضعها وأفضل محالّها ، قد جاء أن فضل الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، وليس هناك مكان في الدنيا يوازي هذا المكان في هذه الفضيلة العظيمة؛ ولا حتىٰ المسجد النبوي ، لأن الصلاة في مسجد النبي ﷺ بألف صلاة ، والصلاة في المسجد الحرام تزيد عنه بمائة ضعف ، فإذاً أعظم ما يكون فساداً في الأرض يتعلق بالدين ويتعلق بمحل العبادة : الإلحاد في الحرم.

ولتلاحظ هنا : أن في كل عمل من هذه الإعمال يُذكَر أشنعه ؛ فالإلحاد في الحرم هو أعظم وأشنع أنواع الإلحاد في مواضع العبادة وأماكنها؛ قال: ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) يعني أن يصل به الحال ويبلغ به الأمر إلىٰ درجة أن أشرف أماكن العبادة وأعلاها شأناً وأرفعها مقاماً ومكانةً يلحِد فيه ، ومن

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير .

يقع منه الإلحاد في أشرف محالّ العبادة وأعظمها فإن وقوع الإلحاد منه في أماكن العبادة التي هي دون هذا المكان من باب أولىٰ ، فهذا يبين لنا شناعة حال وسوء فِعال من يلحد في الحرم؛ أي من يبلغ به الحال في تجاوزه وتعديه وظلمه وبغيه إلىٰ درجة أنه لا يعرف للمكان فضله وشرفه ومنزلته وقدره ، والله ﷻ يختار من البقاع ما يشاء ومن الأزمنة ما يشاء؛ حرّم مكة وحرّم الأشهر الحُرم، حرّم أمكنةً وحرّم أزمنة، وما يحرّمه الله ﷻ يجب علىٰ المسلم ألا يكون فيه من أهل ظلمٍ أو تعدٍّ أو تجاوزٍ أو طغيانٍ ، لأن الظلم والتعدي في كل وقت شنيع ، وفي الزمان الفاضل أشنع ، وفي المكان الفاضل أشنع ، وإذا اجتمع شرف زمان وشرف مكان وسوء فعال فهذا – والعياذ بالله– من شر ما يكون وأفسد ما يكون.

قال : ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) ؛ الحرم المراد به : مكة التي حرمها الله – تبارك وتعالىٰ – ، وقد جاء في الحديث ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ))[٤]، والمراد بتحريم إبراهيم مكة : أي إظهاره حرمتها ؛ وإلا فالذي يحرم الله رب العالمين ، والمراد بتحريم النبي ﷺ للمدينة : أي إظهار حرمتها ﴿ وَمَا عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [النور:٥٤] ، فهي بلدٌ حرام حرّمها الله ﷻ ، وقد أكد وذكَّر – عليه الصلاة والسلام – في حجة الوداع بحرمة البلد ، وكان أهل الجاهلية يعرفون حرمته ، قال ((أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟)) قالوا : بلد حرام وشهر حرام ويوم حرام ، فقال ((فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا))[٥] .

---

(٤) رواه البخاري (٢١٢٩) ، مسلم (١٣٦٠) واللفظ له.

(٥) رواه البخاري (٧٤٤٧) ، مسلم (١٦٧٩).

والإلحاد أصله في اللغة : الميل والعدول ؛ يقال ألحد السهم عن الرمية : أي مال ولم يُصِب الهدف ، ومنه تسمية اللحد في القبر لحداً لأنه يميل عن الاستقامة إلىٰ جهة القبلة ، والإلحاد دركات .

والملحِد في الدين : هو من يكفر برب العالمين ويجعل مكان تعظيم الله وإجلاله والخضوع له ﷻ الجحد والعناد والإنكار ، ولهذا قال ﷻ ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف:١٨٠] إما بتعطيلها ، أو جحدها ، أو إنكارها ، أو تشبيه أسماء الله وصفاته بخلقه ، أو غير ذلك من أنواع الإلحاد .

في قوله ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)): حدّد النوع المراد بالإلحاد ((ملحد في الحرم)) : أي يفعل الإلحاد ويمارس الإلحاد في الحرم، والمراد بالإلحاد هنا : الذنوب العظام والجرائم ، ففِعْلها في كل وقت وفي كل زمان حرام ، ولكن فعلها في الحرم أشد جرماً وأعظم إثماً وأكبر خطيئةً ؛ لما قام في قلب فاعلها من عدم الاحترام للبلد الحرام الذي حرّمه الله – تبارك وتعالىٰ – .

قال : ((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**))؛ هذا أعظم الإفساد فيما يتعلق بمحل العبادة ، والنوع الثاني من الإفساد: إفساد يتعلق بالعمل والعبادة نفسها.

قال: ((**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) ؛ **مُبْتَغٍ**: أي مريدٍ وطالبٍ ، **فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**:أي يبحث ويطلب ويريد سنة الجاهلية ؛ فيسعىٰ في إقامتها ونشرها والدعوة إليها والترويج لها، فهذا إفساد، وأي إفساد أعظم من هذا ؟! الله ﷻ أصلح الأرض ببعثة المرسلين ثم يأتي من يأتي لينشر بين الناس سنة الجاهلية التي أبطلها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام !!

ولكي يظهر لك شناعة هذا الإفساد وعظم هذا الجرم ؛ تأمل في الجهد العظيم والجهاد الكبير الذي أمدّ الله ﷻ به رسولنا ﷺ ومن كان معه من الصحابة الكرام في إظهار هذا الدين ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾[الفتح/٢٨] فكان منه عليه الصلاة

والسلام ومن صحابته جهود عظيمة وتضحيات وبذل في نشر هذا الدين ، وقد بُعث – عليه الصلاة والسلام– في حال ساء فيه وضع البشرية سوءًا عظيماً وخيّم في أرجاء الأرض الظلام ، قد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ))[٦] يعني إلا قلة ونوادر، قلائل جداً وإلا فالأرض كلها استحكمت بالظلام وخيّم الباطل في أرجائها وضرب بأطنابه في جنباتها، فشاع الظلام وانتشر الباطل وعمّت الخرافات والتبس الدين عند الناس فلا يعرفون حقاً ولا يُنكرون منكرا؛ يراق الدم ولا يدري صاحبه بما أريق دمه، يكفي في هذا جاهليةً عند أولئك إراقة دماء الإناث وهذا شاع فيهم ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير:٨-٩] ، ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩] ؛ جاهلية جهلاء، حتىٰ ذكر أهل العلم في هذا الباب أن من جاهلية أولئك في هذا الأمر ومما امتلأت به قلوبهم من ظلام وكراهية وبغضاء للأنثىٰ أن بعضهم كان لا يتحمل أن تبقىٰ له أنثىٰ علىٰ وجه الأرض ولا دقيقة واحدة ، حتىٰ ذكروا في كتب التاريخ أن بعضهم إذا اقترب وقت وضع زوجته يحفر حفرة عميقة بجنبها وتطلق زوجته وتلد بجنب الحفرة ، وأول ما يخرج المولود ينظر فيه الوالد إن كان أنثىٰ ما يبقىٰ ولا لحظة واحدة، من رحم الأم إلىٰ الحفرة مباشرة، مجرد ما يخرج من رحم الأم رأسا إلىٰ الحفرة في نفس الوقت ، ربما لا يسمع له صراخ فيرميه في الحفرة ويهيل عليه التراب . من مِثل هذه المآسي شيء كثير: أنكحة الجاهلية، عدّدت عائشة – رضي الله عنها – أنواعاً من الأنكحة[٧]، فساد في الأعراض، إراقة

---

(٦) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) .

(٧) أخرج البخاري (٥١٢٧) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : ((أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ : فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوْ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا ، وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أَرْسِلِي إِلَى فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ ؛ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ ، وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلَانُ تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ

في الدماء ، انتهاب للأموال .

أما عن باب العبادة والإخلاص لرب العالمين فهذا لا وجود له؛ بل ليس إلا الوثنية والتنديد والتعلق بالتراب وبالأحجار والقبور والأشجار وتسوية هذه الأشياء بالرب العظيم والخالق الجليل ، قال – تعالىٰ – : ﴿ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧ -٩٨] ، وقال – تعالىٰ –: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾[البقرة:١٦٥] يحب حجراً مثل حبه لله ﷻ ، لا إله إلا الله! حجر لا يعطي ولا يمنع ولا يخفض ولا يرفع ولا يملك لنفسه حولاً ولا قوة فيحِبه حبًا مساويا لرب العالمين !! انشغلوا بالإقبال علىٰ الحجارة وعلىٰ الأشجار يعبدونها ويتبركون بها ويطلبون منها المدد والعون والشفاء والعافية ، وكان لهم في هذا الباب غرائب وعجائب، كان بعض من أسلم يحكي شيء من هذه الغرائب مثل قول أحد الصحابة : كانوا في وقت الجاهلية في سفر ومعهم حجر جميل حسن الشكل فكانوا يعبدونه في الطريق أينما وقفوا وأينما حلوا ، يقول : ففُقد هذا الحجر ونحن في الطريق فنادىٰ منادٍ : يا قوم إنا فقدنا ربكم فالتمسوه – ابحثوا عن ربكم ضاع – فتفرقنا في الأودية نبحث عن الرب المفقود فإذا بمنادٍ ينادي : يا قوم إنا وجدنا ربكم أو شِبْهَه))(٨) وجدوا حجر آخر ، ففرحوا وأقبلوا عليه يعبدونه ، جاهلية جهلاء !! أنقذنا الله ﷻ من هذه الجاهلية ببعثة محمد – عليه الصلاة والسلام – ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] ، فهذه منّة عظيمة منّ الله ﷻ بها علىٰ البشرية ببعثة محمد – عليه الصلاة والسلام – حيث خلّص الله ﷻ بها الناس من هذه الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء.

الرَّجُلُ ، وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لَا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمْ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ وَدُعِيَ ابْنَهُ لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ)) .

(٨) قال أبو عثمان النهدي : كنا في الجاهلية نعبد حجرا فسمعنا مناديا ينادي : يا أهل الرحال ، إن ربكم قد هلك فالتمسوا ربا ، فخرجنا على كل صعب وذلول ، فبينا نحن كذلك إذ سمعنا مناديا ينادي : إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه ، فجئنا فإذا حجر فنحرنا عليه الجزر . (سير أعلام النبلاء)

ولما بدأ – عليه الصلاة والسلام – بالدعوة أوذي ﷺ أذىً عظيمـاً ، وحمل عليه أهل مكة حملة شنيعة ، وآذوه أذىً بالغـاً ، وطردوه ، ورمَوه ، ووضعوا عليه الأذىٰ وهو في طريقه ، وكالوا له أنواع السباب والشتائم ووصفوه بشنائع الصفات ؛ وصفوه بالسحر والجنون إلىٰ غير ذلك ، وهو – عليه الصلاة والسلام – صابر مجاهد حتىٰ كتب الله ﷻ لدينه الظهور ولمِا جاء به التمكين – مكّن له ولدينه –.

وانظر رعاك الله وتأمل في موقف عجيب يتعلق بهذا الباب : عندما حج ﷺ حجة الوداع وفي يوم عرفة أشرف الأيام وأعظمها وخيرها ؛ لما وقف ﷺ في ذلك اليوم وخطب الناس ، وتأمل أن مقولته لهذه المقالة في البلد الذي كان إلىٰ وقتٍ قريب مخيّماً فيه الجاهلية أعظم تخييم ويحارِب أهله الحق أشد محاربة ، وقد بذل ﷺ جهداً مضنياً وجهاداً عظيماً ونصحاً بالغاً ودعوةً متواصلة لإبطال الجاهلية بعون من الله ومد إلىٰ أن وصل إلىٰ هذا الموقف العظيم ، الموقف الذي ظهرت فيه عزة الإسلام والتمكين للدين فقال – عليه الصلاة والسلام – في خطبته مما يتعلق بموضوعنا هذا: ((أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ))(٩) ، هنا لابد أن تنظر متأملاً: النبي ﷺ وضع الجاهلية تحت القدمين ، فكيف يليق بإنسان يدعي أنه متبع للرسول عليه الصلاة والسلام ثم في الوقت نفسه يسعىٰ ليسُنّ في الناس سنة الجاهلية !!

وبهذا يتبين خطورة هذا الأمر وأنه أبغض الأعمال إلىٰ الله ﷻ ((**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) يعني بعد أن بذل النبي تلك الجهود الضخمة العظيمة لإبطال الجاهلية وهدمها وإلغائها ووضعها تحت القدمين ثم يأتي أناس ليسنّوا في الإسلام سنة الجاهلية !! هذا جرم عظيم للغاية وذنب كبير جداً ؛ أن يأتي إنسان ويسعىٰ ليسن في الإسلام سنة الجاهلية فيبوء بإثم عظيم ؛ لأنه يهدم ، لأنه يفسد ، لأنه يُضِل بعد أن أصلحت الأرض ببعثة نبينا الكريم – عليه الصلاة والسلام – ﴿ وَلَا

(٩) أخرجه مسلم (١٢١٨) ، أبو داود (١٩٠٥) ، ابن ماجه (٣٠٧٤) واللفظ له.

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف:٥٦] .

من ينادي لتعظيم الأوثان والتعلق بغير الله والتعلق بالحُروز وغيرها مما هو صرفٌ للقلوب عن التعلق بالله ﷻ هذا من أعظم ما يكون في سن سنة الجاهلية في الإسلام ، وكذلك من يدعو إلىٰ أنواع الخرافات التي كان عليها أهل الجاهلية والضلالات التي كانوا عليها فقد سن في الإسلام سنة الجاهلية.

وسنة الجاهلية : الطرائق والأعمال التي كان عليها أهل الجاهلية وقد حاربها النبي – عليه الصلاة والسلام –.

وهنا يتبين لنا حاجة الإنسان أن يعرف ولو معرفةً مجملة بما كان عليه أهل الجاهلية ليحذر منه ، قال عمر ﷺ ((تُنْقَضُ عُرَىٰ الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْجَاهِلِيَّةَ)) ؛ لأنه تُدخل عليه الجاهلية من حيث لا يشعر ، ويُدخل عليه فسادها من حيث لا يدري ، ولهذا يحتاج الإنسان أن يكون علىٰ معرفة من خلال ما ورد في النصوص والأدلة بأمور الجاهلية ليحذر منها ، وقد نصح مؤلف هذا الكتاب المسلمين نصحاً بالغاً بتأليفه مصنفاً قيّماً وكتابا عظيما نافعا أسماه : " مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها " عدّد فيه مسائل الجاهلية وخصال الجاهلية ، وشُرح هذا الكتاب وطُبع طبعات كثيرة ، وقراءة المسلم مثل هذا الكتاب ولو مرة في حياته يفيده فائدة عظيمة ؛ أنه يعرف هذه الخصال من أجل أن يتقيها ويحذرها ويُحذِّر منها .

تعلم الشر لا للشر ولكن لتوقيه فإن من لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

فيعرفها ليحذر منها،" كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!! " ، يقول حذيفة ﷺ : ((كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي))[١٠]،فكتاب " مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها " لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله وغفر

(١٠) أخرجه البخاري (٣٦٠٦) ، مسلم (١٨٤٧) ، أبو داود (٤٢٤٤) واللفظ للشيخين .

له- كتاب من أعظم ما يكون، وأنفع ما يكون لأنه عدّد فيه رحمه الله مسائل الجاهلية وخصالهم وأعمالهم التي جاء الإسلام بهدمها وإبطالها التي وضعها نبينا - عليه الصلاة والسلام - تحت قدميه عندما خطب الناس في حجة الوداع.

ولعل هنا من المناسب الإشارة إلىٰ فائدة تتعلق بمن حج : إذا كان النبي - عليه الصلاة والسلام - وضع في حجة الوداع أمور الجاهلية كلها تحت قدميه ؛ فيا من أكرمك الله ﷻ بالحج ومنّ عليك به فلتعُد منه وأنت متباعد ومجانِب غاية المجانبة وحذِرٌ غاية الحذر من الجاهلية وخصالها وأعمالها التي وضعها نبينا وقدوتنا - صلوات الله وسلامه عليه - تحت قدميه عندما حج حجته المعروفة بحجة الوداع ، وكانت وصاياه - عليه الصلاة والسلام - وصايا مودع ، ومن المعلوم أن وصية المودع لها شأن خاص ((كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا))[11]، فمن أكرمه الله - تبارك وتعالىٰ - ليستشعر هذا الأمر وليكن علىٰ حذر بالغ وحيْطة شديدة من أمور الجاهلية ، ويعينك علىٰ تحقيق هذا المرام وتحقيق هذا المطلَب الاستفادة من هذا الكتاب الذي أشرتُ إليه ؛ كتاب " مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها " تقرأ الكتاب وتعرف هذه الخصال وتلك الأعمال التي كان عليها أولئك وتجتهد وتجاهد نفسك في البعد عنها والحذر من الوقوع فيها مستمداً من الله ﷻ وحده العون والتوفيق.

إذاً قوله هنا ((**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) هذا يتعلق بالفساد في العمل، و((**مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ**)) الفساد في محل العمل ، ((**وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**)) متعلق بفساد الدنيا. وكل هذه الثلاث أعظم وأشنع فساد يُعدّ في بابه ؛ فأعظم فساد يتعلق بمحل العبادة : الفساد في الحرم، وأعظم فساد يتعلق بالعبادة والعمل : أن يُبتغىٰ فيها سنة الجاهلية، وأعظم فساد يتعلق بحياة الناس: إراقة دماءهم بغير حق . فجمع النبي - عليه الصلاة والسلام - هذه الخصال الثلاث في الذكر .

(١١) رواه بهذا اللفظ الدارمي والبيهقي.

ثم أتبع المصنف – رحمه الله – هذا الحديث بنقل عظيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية من كتاب له أيضا يتعلق بهذا الباب وهو كتاب " اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم " وهو كتاب عظيمٌ جداً في بابه ، جمع فيه مصنفه – رحمه الله – من أنواع الأدلة والبراهين في باب التحذير من التشبّه بأصحاب الجحيم ، أصحاب الضلال ، أصحاب الباطل ، أصحاب الكفر . والحاجة ماسة ولاسيما في زماننا إلىٰ قراءة هذا الكتاب الذي كثر في الناس التشبه بأعداء الدين ، وقد بسط شيخ الإسلام – رحمه الله – في اقتضاء الصراط المستقيم ما يتعلق بالتشبه وأنواعه وأسبابه والدلائل من الكتاب والسنة علىٰ خطورة هذا الأمر والتحذير منه ، وجمَع من ذلك ما لا تجده في مؤلَّف آخر . فهذان كتابان عليك بهما :

١ – اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم.

٢ – مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها.

قال : ((**قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : قوله سنة الجاهلية ؛ يندرج فيه كل جاهلية مطلقة أو مقيدة أي في شخص دون شخص كتابية أو وثنية أو غيرهما من كل مخالفة لما جاء به المرسلون**)).

أورد المصنف – رحمه الله – هذه الكلمة لشيخ الإسلام لأن فيها بيان للمراد بسنة الجاهلية ، وهذا البيان يُحتاج إليه حتىٰ لا يظن ظان أن المراد بسنة الجاهلية أمر معيّن مخصوص أو عمل معيّن ، فأراد أن ينبّه أن سنة الجاهلية كل أمر كان عليه الجاهلية مما جاء الإسلام بهدمه ومخالفته. وخرج من هذا الكلام بضابط ؛ أن الجاهلية : كل أمر مخالف لما جاء به المرسلون، لأن المرسلون جاءوا بالحق ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾[يونس:٣٢]، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾[الإسراء:٨١] ، فالجاهلية: كل أمر خالف ما عليه المرسلون ؛ سواء في باب العلم أو في باب القول أو في باب العمل ، حتىٰ لو

أن إنسانـًا فعل أموراً هي من خصال الجاهلية وهو عالِم بأنها محرمة عالم بدليل تحريمها ففِعله هذا يُعدّ جاهلية، وشيخ الإسلام ابن تيمية له شرْح لهذا الحديث ((**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ ثَلَاثَةٌ**)) في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم في صفحات تبلغ الأربع أو الخمس صفحات ، وذكر فيه فوائد ولطائف مهمة جداً ينبغي علىٰ طالب العلم أن يقف عليها.

من خلال هذا التعريف يتبين لنا أنّ من ابتغىٰ في الإسلام شيئـًا من أعمال اليهود أو أعمال النصارىٰ أو أعمال الوثنيين أو أعمال أيـًا من المنحرفين عن الحق والدين كل أولئك من المبتغين في الإسلام سنة الجاهلية، فلا تُحصر الجاهلية بما كان عليه المشركون في مكة، ولا تُقيَّد الجاهلية بعمل واحد من أعمالهم؛ بل سنة الجاهلية: كل أمر يخالف ما جاء به المرسلون.

قال رحمه الله :

[وفي الصحيح عن حذيفة ﷺ قال: ((يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا))(١٢)]

****

الشرح :

ثم أورد هذا الحديث قال: **وفي الصحيح عن حذيفة ﷺ قال: ((يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا))** ؛ خص في هذه الوصية بالذكر القرّاء، مع أن هذه الوصية في حق كل مسلم، ولكنه خص القراء الذين لهم عناية بالقرآن وحفظ له وعناية بإتقانه وضبطه لأنهم أصبحوا موضع قدوة للناس ومحل نظر لهم ، فقال محذِّراً وموصياً للقرّاء : ((**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا**)) ؛ أي : الزموا الاستقامة .

(١٢) رواه البخاري (٧٢٨٢) بدون لفظ ((فإن استقمتم)) .

والاستقامة : هي معرفة الحق والثبوت عليه ولزومه ، قال تعالىٰ: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١٢] ، ولا يمكن للإنسان أن يستقيم كما أمِر إلا أن يعرف أولاً بِمَ أمِر ثم يحافظ عليه ؛ فيعرف المأمور ويحافظ عليه محافظة تامة إلىٰ أن يلقىٰ الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف:١٣] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [فصلت:٣٠] .

فالاستقامة: هي معرفة الحق ولزومه. وهذا فيه تنبيه من حذيفة إلىٰ أن قارئ القرآن يحتاج مع قراءته للقرآن وحفظه له إلىٰ أمرين لابد منهما:

الأول: معرفة معاني القرآن ودلالاته.

والثاني: العمل بالقرآن.

وهذا هو المراد بقوله تعالىٰ:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة:١٢١] قال العلماء: تلاوة القرآن حق التلاوة بأمور ثلاثة : بالحفظ، والفهم، والعمل.

والعمل نفسه يسمىٰ تلاوة ؛ ليست تلاوة القرآن مجرد إتقان حروف القرآن ، تلاوة القرآن: بالحفظ والفهم والعمل بالقرآن، وبعض الناس ينشغل بالقراءة وتنميقها وتحسينها عن الغاية التي أنزل لها القرآن وهو العمل كما نبّه علىٰ هذا المعنىٰ الفضيل ابن عياض بقوله : ((إنما نزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً))[١٣] وأصبحت صناعة ، وأما العمل بالقرآن فهذا لا يُهتم به ، وقد قال الحسن البصري عن جماعة القراء في زمانه : ((حتىٰ أن أحدهم ليقول : قد قرأت القرآن كله فما أسقِط منه حرفا واحدا[١٤]، وقد والله أسقطه كله، ما يُرىٰ له القرآن في خلق ولا عمل، – ثم قال الحسن– لا والله ما هؤلاء بالقراء ولا بالعلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتىٰ كانت القراءة هكذا

(١٣) ونبّه على هذا المعنى أيضا الحسن البصري فقال : ((نزل القرآن ليُتدبر ويُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً)) .

(١٤) يعني قراءة متقنة مجوّدة مضبوطة.

أو يقول مثل هذا، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء))[١٥] . هكذا قال الحسن في زمانه، فالقراء لهم اعتبار خاص ولهم وضع خاص، فخصّهم حذيفة ﷺ بهذه الوصية العظيمة قال : ((**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا**)) يعني الزموا الاستقامة ، والله يقول: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ ، ويقول: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام/ ١٥٣].

((**اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا**)) ؛ لأن القارئ للقرآن تميّز عن غيره بأمر وهو: قراءته القرآن، وعنايته به، وحفظه له، ومحافظته عليه، وإكثاره من تلاوته ومراجعة معانيه ودلالاته، وكتاب الله عز وجل كتاب يهدي للتي هي أقوم.

((**فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا**)) ؛ لأن سبْق من كان هذا شأنه سبْقٌ بعيد ؛ لأن لديه علم واسع وفهم كبير ومعرفة بكتاب الله ﷻ كتاب الهداية.

قال: ((**فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**)) ؛ إذا كان قارئ القرآن حافظ القرآن ضابط القرآن يميل يمين وشمال وينحرف هنا وهناك فهذا أخطر ما يكون ، لأن القرآن سيأتي يوم القيامة حجةً عليه كما قال – عليه الصلاة والسلام – : ((وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ))[١٦] ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ))[١٧]. فالخطورة فيما يتعلق بأهل القرآن أشد ولهذا خصهم حذيفة بهذه الوصية ((**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فإن استقمتم فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**)) .

وإيراد المصنف – رحمه الله – لهذا الأثر عن حذيفة في ((باب الدخول في الإسلام)) لأن فيه بيان حقيقة الإسلام وهي: الاستقامة علىٰ دين الله ﷻ بدون التواء لا يمين ولا شمال وبدون روَغان،

(١٥) البداية والنهاية (ج٩) لابن كثير.

(١٦) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(١٧) أخرجه مسلم (٨١٧).

وهذا الأمر مطلوب من كل مسلم ؛ ليس مطلوب من القراء فقط ؛ بل مطلوب من كل مسلم، لكن حذيفة رضي الله عنه خص القراء بالذكر لأنهم في موضع القدوة ، والمسؤولية في حقهم أعظم بما آتاهم الله عز وجل من الحفظ والقراءة والمعرفة بكلامه سبحانه وتعالى.

فالمصنف رحمه الله أورد هذا الأثر في ((**باب الدخول في الإسلام**)) لأن فيه بيان حقيقة الدخول في الإسلام وأن حقيقة الدخول في الإسلام الاستقامة علىٰ دين الله كما أمِر العبد دون أن يميل عنه ذات اليمين ولا ذات الشمال ، لا إلىٰ بدع محدثات ، ولا إلىٰ سننٍ جاهلية ، ولا إلىٰ غير ذلك من أنواع الضلالات .

قال رحمه الله:

[وروىٰ عن محمد بن وضاح عن حذيفة أنه كان يدخل المسجد فيقف علىٰ الحِلَق فيقول: فذكره].

****

الشرح :

((**وعن محمد بن وضاح**)) ؛ محمد بن وضاح من علماء المالكية ، له كتاب مطبوع في البدع والنهي عنها ، وكتابه هذا قيم ونافع جداً في التحذير من البدع وبيان خطورتها علىٰ الناس .

فأورد – رحمه الله – أعني محمد بن وضاح في كتابه البدع والنهي عنها ((**أنه**)) الضمير هنا يعود إلىٰ حذيفة ((**كان يدخل المسجد فيقف علىٰ الحلق فيقول" فذكره "**)) ؛ يقف علىٰ الحِلق التي فيها يجتمع الطلبة لقراءة القرآن وحفظه ، فكان يوصيهم بهذه الوصية ، وكم هو عظيم جداً أن ينشأ من يحفظ القرآن علىٰ رعاية الاستقامة والعناية بها ، لا أن ينشأ قارئ القرآن مع حروفٍ لا يحرص علىٰ فهم معناها فضلاً عن أن يعتني بالعمل بما تقتضيه .

وهذا جانب فرّط فيه الناس كثيراً ، فاتجهوا إلىٰ حفظ حروف القرآن مع إهمال بشكل كبير لفهم المعاني والعمل بما يدل عليه القرآن الكريم ، ونشأ عن ذلك أن يخرج الطالب وهو يظن في نفسه أنه من أهل القرآن بمجرد هذا الحفظ وهذا الإتقان ، ولكنه مفرِّط في جانب كان محل اهتمام الصحابة واهتمام السلف – رحمهم الله – وهو الفهم ومن ثم العمل ، فجمعوا بين العلم والعمل في قراءتهم لكتاب الله ﷻ .

يجلس الطالب في الحلْقة عند أستاذه ويحفظ علىٰ سبيل المثال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣-٢٤] ويكتب له المعلِّم مئة من مئة لأنه أتقن الحفظ وأتقن المخارج وأتقن التجويد ؛ ويكون في البيت عاقًا لوالديه ، من أسوأ ما يكون في البيت معاملةً مع والديه ، فيأخذ درجة كاملة في هذه الآية وهو في الحقيقة صفر !! إذا كان عاقًا لوالديه ويحفظ هذه الآية فهذه الآية حجة عليه ليست حجة له؛ فهو لم يأخذ مئة ، أخذ فيها صفر إذا كان بهذه الصفة ، وقل مثل ذلك في بقية آي القرآن .

فيحتاج الطلبة في الحلَق إلىٰ أن يربَّوا علىٰ العمل بالقرآن ؛ إذا حفظوا أمثال هذه الآيات ينبه ويذكّر ويقال له اتق الله وانتبه ؛ هذا رب العالمين يأمرك بكذا كما قال ابن عباس: " إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين امنوا فأرعِها سمعك ، فإنه إما خير تؤمر به، أو شر تنهىٰ عنه " تربية علىٰ العمل وعلىٰ الامتثال وعلىٰ الطاعة والاستجابة .

يقرأ الطالب في الحلقة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ [الحجرات:١٢] وبمجرد ما تنتهي الحلقة يلتفت إلىٰ زميله ويغتاب ، وهو للتوّ قرأ الآية وللتو حفظها وللتو سمّعها لشيخه وأستاذه !! وقل مثل هذا كثير ، فيحتاج إلىٰ هذه الوصية ، إذا كان حذيفة يتتبع الحلق في زمانه يوصي بهذا الأمر فكم هي حاجة الناس في مثل هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن وكثرت فيه الصواد والصوارف عن دين الله – تبارك وتعالىٰ – !! .

قال رحمه الله :

[وقال أنبأنا سفيان بن عيينة عن مجاهد عن الشعبي عن مسروق قال : قال عبد الله – يعني ابن مسعود رضي الله عنه – ((ليس عام إلا والذي بعده أشر منه ، لا أقول عام أمطر من عام ، ولا عام أخصب من عام ، ولا أمير خير من أمير ؛ لكن ذهاب علمائكم وخياركم ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم فيُهدم الإسلام ويثلم))[١٨]]

****

الشرح :

ثم ختم – رحمه الله – هذا الباب بهذا الأثر عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال : ((**ليس عام إلا والذي بعده أشر منه**)) ؛ هذه الكلمة صدرت من ابن مسعود ﷺ علىٰ وجه التحذير ، والتأكيد التام علىٰ المحافظة علىٰ الإسلام والدخول فيه ، والباب ((باب الدخول في الإسلام)) ، فأراد المصنف – رحمه الله – أن ينبه بإيراده لهذا الأثر إلىٰ أن الناس مع مضي الأيام والأوقات الشر يزداد ويكثر ، فيحتاج المسلم حتىٰ يكون من أهل هذا الدين وأهل الثبات فيه واللازمين للدخول فيه كما أمر الله ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ يحتاج إلىٰ جهاد ومجاهدة ومواصلة في العلم وطلبه وتحصيله والبعد عن الآفات التي تصرف الناس عن الحق والهدىٰ ؛ لأجل هذا أورد المصنف – رحمه الله – هذا الأثر في خاتمة هذا الباب ، لأن ابن مسعود ﷺ أراد التحذير بقوله ((**ليس عام إلا والذي بعده أشر منه**)) ؛ أي انتبهوا واحذروا وعليكم بالمحافظة علىٰ الإسلام والرعاية له والعناية به والحرص علىٰ تعلّمه والتفقه فيه والحذر من نواقضه ونواقصه.

---

(١٨) رواه الطبراني في المعجم الكبير بلفظ ((لَيْسَ عَامٌ إلا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، وَلا عَامٌ خَيْرٌ مِنْ عَامٍ، وَلا أُمَّةٌ خَيْرٌ مِنْ أُمَّةٍ، وَلَكِنْ ذَهَابُ خِيَارِكُمْ وَعُلَمَائِكُمْ، وَيُحْدِثُ قَوْمٌ يَقِيسُونَ الأُمُورَ بِرَأْيِهِمْ فَيَنْهَدِمُ الإِسْلامُ وَيَنْثَلِمُ)) .

ثم نبّه ابن مسعود ﷺ أنه لا يعني بـ((شرٍّ منه)) فيما يتعلق بالدنيا ((**لا أقول عام أمطر من عام**)) ؛ يعني ليس المراد بشر منه : أي بقلة المطر أو قلة الأرزاق أو حصول الجدب ، ((**لا أقول عام أمطر من عام ولا عام أخصب من عام**)) لا أعني بقولي شر منه فيما يتعلق بالأمطار والخصب والأرزاق.

((**ولا أمير خير من أمير**)) أيضاً لا أعني هذا الأمر إذاً ماذا ؟!

قال : ((**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**)) يعني الشر يكون :

- بقلة العلماء الذين يبينون للناس دين الله ﷻ ؛ الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويصلحون ما أفسد الناس.

- وقلة الأخيار الذين هم علىٰ الاستقامة وعلىٰ المحافظة وعلىٰ طاعة الله ﷻ، فيكونون في مجتمعاتهم قدوات للآخرين إذا شرد الإنسان إلىٰ بعض المعاصي ورأىٰ هؤلاء كانوا له قدوة .

قال : ((**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**)) ؛ وإذا ذهب العلماء والأخيار ظهر الفساد وبرز حمَلته ، لأن حَمَلة الفساد لا يبرزون إلا إذا عُدِم أو قلّ حَمَلة الحق . وهذا فيه تنبيه إلىٰ أن وجود حملة الحق ودعاته مزهق للباطل ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾[الإسراء:٨١] ، وأهل الباطل لا يجرؤون بنشره إلا إذا ضعف حملة الحق عن حمله وبيانه .

قال: ((**ولكن ذهاب علمائكم وخياركم**)) ماذا يحدث إذا ذهب العلماء والخيار؟

قال ((**يحدُث أقوام**)) أي يوجد أقوام ((**يقيسون الأمور بآرائهم**)) ؛ يعني يكونون في تقريرهم لمسائل الدين يبنون ذلك علىٰ الآراء ، لا يعرفون الكتاب ولا يعرفون السنن وليس لهم عناية بالكتاب ولا بالسنة فيقيسون الأمور بآرائهم ، شأنهم كما قال عمر ﷺ " أعيتهم السنة أن يحفظوها فأعمَلوا عقولهم " ، فيقيسون الأمور بآرائهم ؛ تجده يقرر الحكم ليس مبنياً علىٰ آية ولا علىٰ حديث ؛ وإنما مبني علىٰ الرأي ، والرأي هنا : هو الرأي المذموم الذي أُحدِثت به البدع وأنشئت

به الضلالات وعُطلت به أسماء الله ﷻ وصفاته، والاشتغال بالأقيسة الباطلة التي تُعطل بها الصفات ، وتلغىٰ بها الأحكام ، لو أنه كذا لكان كذا ، هذه حجة هؤلاء ، ليست الحجة عندهم قال الله ولا قال رسوله – عليه الصلاة والسلام – وإنما الحجة أقيسه عقلية .

ماذا يحدث إذا وجد هؤلاء ؟ قال : ((**فيُهدم الإسلام ويُثلم**)) ؛ أي بوجود هؤلاء .

إذاً ابن مسعود – رحمه الله ورضي عنه – قال ذلك محذِّرا وموصيا بالعناية بالعلم والعمل ؛ العلم النافع :كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، والعمل الصالح : الذي شرعه الله ﷻ وأمر عباده به ، وأن الإنسان ولاسيما عند كثرة الشر وكثرة أهله ودعاته عليه أن يجتهد في تعلّم الدين ومعرفته لعل الله ﷻ يكتبه من أنصار الدين ، ودين الله تبارك وتعالىٰ منصور بعز عزيز وذل ذليل ، فيجاهد نفسه علىٰ أن يكون من أنصار هذا الدين ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا ، والتوفيق بيد الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وما شاء الله كان ، فالأمور بيده ﷻ وطوع تدبيره ، وقد كان نبينا ﷺ يقول كل يوم بعد صلاة الصبح ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَرِزْقًا طَيِّبًا وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا))[١٩] .

فنسأل الله ﷻ لنا جميعا التوفيق والسداد والإعانة علىٰ كل خير، وأن يكب لنا الدخول في الإسلام علىٰ الوجه الذي يحبه – تبارك وتعالىٰ – منا ويرضاه ، وأن يزيّننا بزينة الإيمان ، وأن يجعلنا هداة مهتدين ، وأن يصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، والموت راحة لنا من كل شر، إنه – تبارك وتعالىٰ – سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه.

---

(١٩) رواه ابن ماجه (٩٢٥) .